النقد العلمي و النص الديني
قراءة في الأزمة ومقاربات نحو الحل

أ. د. نعيمة إدريس
الأستاذ بقسم الفلسفة
جامعة المدرسة العليا للأساتذة آسيا جبار
قسنطينة، الجزائر

عرف العلم الحديث باكتشافاته اختلافات وصراعات مع الدّين، وتحديدا مع سفر التكوين وقصة خلق الكون والإنسان، لكن صدمة نظرية التطور كانت أشد ، لذا ضحت الكنيسة بفيزياء سفر التكوين، مستندة إلى تبريرات أهمها أن الكتاب المقدس كتاب دين بالدرجة الأولى، وبديهي أن يتضمن أخطاء علمية في حدود المعرفة التي كانت متوفرة آنذاك، لكنها أصرت إصرارا شديدا على النصوص المتعلقة بآدم ، وصرّحت سنة ١٩٢٣ مؤكدة أن آدم أول البشر، وأنه خُلق راشدا، وأن جسده تحفة العمل الإلهي من حيث التناسب والعظمة والجمال والجلال، وأنه ملئ علما، وأنه كان قبل الخطيئة خالدا، وأنه عاش بعد الزلة حتى (٩٣٠) سنة .

لكن العلم يواصل أبحاثه، غير مكترث بمثل هذه التصريحات، فهو يدرس الفقريات وتطورها، والقردة القريبة من الإنسان، بل وتظهر مصطلحات للإنسان القديم على أساس الحفريات، فهذا إنسان (نيادرتال) وإنسان (كرو–مانيون) وإنسان (غريمالدي)... ويزداد حرج العَالِم الكاثوليكي وقلقه: هل يصر على إيمانه وعلى قصة الخلق التوراتية، أم يقبل بنظرية التطور وما تقدمه من حجج، ويستسلم ثانية لأحضان العلم؟ لكن الاستسلام هذه المرة قد يصيب مقتلا في مبدأ المسيحية ذاته على اعتبار أن عقيدة التطور تتعارض كلية مع عقيدة الفداء والخطيئة، التي تشترط كمال الإنسان الأول، وهي عقيدة تمثل المحور والقاعدة في المسيحية، والتراجع عنها، يعني ببساطة التخلي عن المسيحية.

وهنا بدأت أسئلة أخرى تطرح بهدف إيجاد حل: هل التعارض بين العلم والكتاب المقدس أو الدين ككل كبير إلى هذا الحد؟ ألا يمكن أن يتفقا، أو على الأصح إيجاد سبل لاتفاقهما؟

واقع الحال أثبت أن الإنسان بحاجة إلى قيمه، إلى إيمانه بالله، حاجات الإنسان عجزت الفلسفات المتعددة عن تلبيتها، و العجز نفسه عرفه العلم الذي توّهم أنصاره أنه يُلبي كل الحاجات، ويأتي القرن العشرون بحربين عالميتين، ويلف الدمار العالم الحديث الذي أسس على عقيدة التقدم، ويجد الإنسان نفسه أنه لا يتطور، بل هو صوب التخلف يسير، نحو قتل نفسه، وقتل الإنسانية جمعاء. وهنا لابد للعقل النقدي أن يُعيد النظر، في إنجازاته، في قيمه، في نظرياته... لإيجاد الحل في محاولة للخروج من الأزمة، ومن المتاهة التي يتخبط فيها، وفعلا هذا العقل المتأمل أعاد النظر في مسائل كثيرة.

تمهيد

كلما توسع الدارس في بحث تاريخ العلم في أواخر العصر الوسيط، وبدايات النهضة، اتضحت تطورات أدت إلى تغيير الكثير من المسلمات، مما كان سببا في الكثير من المصادمات، بين الدّين والعلم، والتي بلغت أوجها عنيفة، بسبب السلطة الدينية المتعسفة، وفي هذا السياق نشير إلى الاكتشاف العلمي الخطير والذي يُعد منعطفا في تاريخ أوربا العلمي والديني معا، المتمثل في إحياء كوبرنيك لنظرية أرسطارك حول دوران الأرض .

يبدو غريبا عندما نعلم أن كل الأمور سوف تتزعزع وتنقلب رأسا على عقب بما فيها مكانة الله، و والعالم، و الإنسان، رغم أن سير الحياة هو هو، سواء دارت الأرض أم الشمس، ثم إننا لا نشعر بذلك أصلا.

إن المفاهيم العلمية الجديدة، واللاحقة التي ستدعمها، ستؤثر بعمق كبير لدرجة تغير مسار أوروبا عن ذلك الذي عهدته طيلة قرون الممارسة المسيحية التقليدية، الأمر الذي يجعلنا نتساءل : ما الذي ينجر عن التصور الجديد للعالم الذي اتخذ من الشمس مركزا بدل الأرض؟

هل يؤثر التصور الجديد في ركائز التصور القديم: الله بخلقه وعنايته لمخلوقاته والعالم بغرضيته وأخلاقيته والإنسان بمحوريته ؟

كان للتصور الجديد رغم صحته أكثر من تداعيات سلبية، بل وخطيرة ،أثرت بعمق في المجتمع الغربي ، ليمتد تأثيرها إلى كل العالم بما فيه العالم الإسلامي .

أ- تداعيات النقد في الغرب المسيحي:

كان النقد الذي سلط على الكتاب المقدس قد زعزع الكثير من ركائز الإيمان المسيحي بالتشكيك في مصداقية الوحي، لكن وبالموازاة كان هناك نقد آخر قدم للمسيحية بشكل غير مباشر تماما، إن العلم وهو يسير نحو التقدم ، ونحو فتوحات جديدة توصل إلى حقائق ونظريات تتعارض مع ما هو موجود في الكتاب المقدس بشأن القضايا العلمية نفسها .

إن إحلال النظرية الهيليوسنترية (مركزية الشمس) يناقض جملة من الاعتقادات التي ظلت مسيطرة أكثر من ألف سنة ، والتي أدمجت في العقائد المسيحية بشكل متعسف[1].إن كشوفات علم الفلك والفيزياء وغيرها زادت من حدة الأزمة الدينية في المجتمع الغربي

---

(١) ورد في المزمور: ١/٩٣" الرب قد ملك، لبس الجلال، لبس الرب القدرة، ائتزر بها، **أيضا تثبتت المسكونة لا تتزعزع** "

المسيحي، وأوقعت الموقف الديني في حرج حقيقي، لا إمكانية لتجاوزه أو غض الطرف عنه، فالخصم قوي، مسلح بمناهج وأدوات تفرض نفسها على العقول ، التي باتت تفضل مصداقية الواقع والتجربة بدلا عن المجادلات اللاهوتية، وبدلا عن مصداقية الكتاب المقدس والتي تكاد تُفقد تماما.

في القرن الثامن عشر بدا الموقف الديني ، ضعيفا ، فاقد الحيلة ، أمام الهجمات التي تعرّض لها جراء علوم كوبرنيك ونيوتن ، و أمام الهجمات العقلية العنيفة . وفي القرن التاسع عشر يزداد الوضع تعقيدا وتشتد الأزمة الدينية بتصاعد الصدام بين العلم ورجال الدّين، بوجود عوامل مؤثرة جديدة على الساحة. إن نمو العلم الميكانيكي، والنقد العلمي للتوراة، وانفجار قنبلة التطور عام ١٨٥٩، أبرز الخلاف بين التقاليد الدينية والعالم الحديث، وقد عبّر رد الفعل الأول عن ذاته في جميع الكنائس بكراهية مريرة، وتشهير عنيف لأفكار داروين، في أي من أشكالها وتهيّج الأساقفة، فألصقوا أقبح النعوت بهاكسلي Haxley، وداروين معلنين عن معارضتهم، التي لا يمكن أن تتبدل للفكرة القائلة: إن الإنسان قرد، وللعلم المسمى كذبا بالعلم(١).

يبدو أن كل صدمة تكبر من التي سبقتها، فقنبلة التطور أثارت مشاكل جديدة تخص الخلق؛ بما فيه خلق الكون والإنسان. سفر التكوين يعرض قصة الخلق بكل تفاصيلها، القصة التي يثق و يؤمن بها رجال الدّين، معتبرين الآراء التطورية الجديدة قمة في الإلحاد وبالتالي يرفضونها.

لكن في المقابل الموقف المعارض كان يرد أقوال رجال الدّين إلى الخرافة والظلامية، بل يعلن صراحة أخطاء الكتاب المقدس مبرزين فساد رجال الدّين أنفسهم.

أكثر من ذلك، في القرن التاسع عشر، بدأت تطفو على سطح الجدل العلمي والديني أفكار وعناوين، أكثر حدة، من تلك التي صوّرت الله كساعاتي عظيم، لكن انتهى دوره مع بداية الخلق، وأن الكون لا يحتاج إلى تدخله، كما ذكر لابلاس، أفكار هذه الحقبة، يمكن وصفها بالمرعبة حقا والمربكة أيضا ، حيث يأتي الإعلان عن موت الإله ، كصرخة مدوية للضمير الغربي، وتتداعى الأزمات الدينية بشكل متهاطل، من خلال عناوين وصيغ معبّرة مثل: انهيار المسيحية، المصادر الأسطورية للمسيحية وللدّين عموما، الدّين والضمير

(١) جون هرمان راندال: تكوين العقل الحديث، ترجمة جورج طعيمة، مؤسسة فرانكلين، بيروت ط٢، ١٩٥٥ ص٢٢٣.

المزيف، الدّين عامل مزيف، أزمة مصداقية دّين اليوم، هل للدّين مستقبل؟، خرافة الدّين، كرد فعل لتردي الوضع الديني والروحي عموما.

ومن المؤكد أنه صدرت ردود فعل من قبل جهات عديدة، إلا أن العالم الحديث، واصل السير في الخط الذي رسمت معالمه الكبرى، نظرية نيوتن، غرضية العالم تحوّلت إلى منزع آلي حتمي، وكذلك وجود الإنسان و غرضيته .

والسؤال :

"كيف يمكن أن يكون لأي من هذه الحقائق الفيزيقية أي أثر في مشكلة وجود الله ؟ كيف يمكن أن تزودنا بأي برهان ضد وجوده؟ ألا يمكن أن يكون الله موجودا في حالة دوران الأرض حول الشمس، مثلما يكون موجودا في حالة دوران الشمس حول الأرض؟ وهل يتسق وجود الله مع الدوائر، لكنه يتعارض مع المسار البيضي الشكل (الإهليليجي) ؟ أم أن الله لا يمكن أن يوجد في عالم يتبع قوانين جاليلي للحركة، بل في عالم يتبع قوانين أرسطو؟ فما الذي كان إذن في الثورة العلمية يمكن أن يكون معاديا للدّين" [١].

لا يمكن أن نشك أن المكتشفات الجديدة تتعارض فعلا مع الإيمان المسيحي، لكن كان يمكن تجاوز التعارض بنوع من الحلول كالتي جرت فيما بعد وتجري الآن، من تأويل للنص الديني، وتكييف للاهوت مع العلم، بدلا من رفض حقائق علمية، لا مجال إلى إنكارها، لكن في تلك الحقبة الزمنية، مازال الإيمان محتدا في الصدور، والسلطة الدينية لم تغب تماما، لهذا نجد التعارض حدث فعلا بين الموقفين العلمي والديني.

كل هذا مهّد لظهور الكسمولوجيا الحديثة، بعد حدوث تطورات علمية بالغة الأهمية، خاصة نظرية النسبية « وهي نظرية للفضاء والزمن والجاذبية تصلح لدراسة الكون ومحتواه، وعلى الصعيد الرصدي اكتشاف تباعد المجرات وتوسع الكون (من طرف هابل)، كل هذا سمح بوضع أهم نظرية كونية عرفها الإنسان منذ نشأته وهي نظرية الانفجار العظيم»[٢]. لكن الملاحظ كلما تغيرت النظرة إلى الكون، يتبعها تغير في النظرة إلى الإنسان، الذي لم يعد هدفا كونيا كما كان يعتقد، بل هو أصغر وأتفه من ذلك بكثير.

---

(١) ولتر ستيس: الدين والعقل الحديث، ترجمة إمام عبد الفتاح، مكتبة مدبولي، ١٩٩٨، ص ١٠٣.

(٢) نضال قسوم: مكانة الإنسان في الكون، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مج٢٧، العدد ١، ١٩٩٨، ص ٢٦٩.

ب- تداعيات النقد في العالم الإسلامي :

هل تعارض الدين المسيحي مع العلم يستلزم تعارض الإسلام كدين أيضا معه؟

وهل بالضرورة الإقصاء الذي حدث للمسيحية بفعل مسار تاريخي معيّن يجب أن يحدث مثله للإسلام؟

الإجابة عن مثل هذه الأسئلة تبدو سهلة خاصة من طرف المسلمين المؤمنين الذين لديهم قناعة بأنه لا تعارض بين العلم والإسلام لأنه دين علم وعقلانية، لكن الأمر أعقد من ذلك بكثير، فالعلم وهو ينفي يوما فيوما حدود الغيب في الكون، يطرح علينا أسئلة يجب على الفلسفة والدين الإجابة عنها، أو ينكرا إنسانية الإنسان وجوهره ، والعلم يفرض على كل الناس مزيدا من التفكير، وعلى المؤمنين قراءة جديدة للرسالة المنزّلة عليهم تربطها بالوقت الحاضر مشكلة من المشكلات الجديدة . أليس من الضروري أن نؤكد على أن الإجابة عن هذه الأسئلة لا يمكن أن تكون بالمطابقة البسيطة الغامضة بين العلم والدين كما كان الشأن عدة مرات في الإسلام منذ حركة النهضة؟ (١).

مطابقات عديدة وسريعة، أوقعت التفسير القرآني في إحراجات، فكل اكتشاف علمي جديد لا يجب أن يرّد أصله في القرآن، ردا سريعا ساذجا –كما يفعل بعض المسلمين– على سبيل الإعجاز العلمي القرآني– والذي لا ننكره –لكن كما ذكرنا هذا أوقع المسلمين والإسلام– في مآزق، على اعتبار أن العلم نسبي ونظرياته كثيرا ما تتغير و تتعدل لتجاوزها أو لخطأ ما فيها ، وهذا الرّد السريع –الساذج– يعرّض القرآن لهذا التغيير والتعديل وهذا محال.

من الضروري إيجاد تفسير للنصوص الدينية لا ينكر حتما ثروات الماضي ومكتسباته الإيجابية، ويكون في حاجة إلى المغامرة والتبادل وجو من التوتر حتى يكون على علم بكل ما يجّد، ويكون قادرا على الإجابة عن التساؤلات التي قد تشغل بال الناس(٢)

وإذا رأى العالم في النصوص الدينية ما يخالف معطيات العلم، فإنه يفضل الانتظار حتى تنكشف له معرفة جديدة، فلعلها تأتي متفقة مع فهم ما للدين، والعالم بحكم مهمته مضطر إلى أن يثير مشكلة الإيمان بمعناه الواسع وبمعناه الخاص(٣).

---

(١) محمد الطالبي: الإسلام والحوار، ترجمة الرشيد الفزّي إسلاميات مسيحيات، المعهد البابوي للدراسات العربية بروما، العدد ٤، ١٩٧٨، ص ١٨، ص ٢٢.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٢.

(٣) محمد عبد الهادي أبوريدة : الإيمان بالله في عصر العلم، عن مجلة عالم الفكر، المجلد الأول، إصدار وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت، تصدر كل ٣ أشهر، ١٩٧٠، ص ١٨٠.

إن التطورات التي عرفتها المجتمعات الإسلامية أثرت في الذهنيات و السلوكات على كل المستويات بما فيها الدين. بعض المفاهيم التي كانت لا تثير في الضمير أي مشكل قد ثورّتها المعرفة الحديثة من أساسها، وإن المعلومات التي يتلقاها الطلبة في المعاهد والجامعات عن أصل الإنسان وعن تكوينه البيولوجي، وعن التفاعلات الكيميائية التي تتحكم في عمل المخ البشري والتي ما كانت متوفرة لأسلافنا، لتفرض إعادة النظر في الكثير من المسلمات المصطبغة بالدين في ذهن عامة المؤمنين، وتحتم تحديث التفكير الديني حتى يتلاءم مع العصر"[١].

إعادة النظر في بعض المفاهيم المصطبغة بالدين، أثارت حساسيات أوصلت إلى مواقف جدلية حادة داخل المجتمع الإسلامي ، الإسلام المقدس أصبح محل شك بالنظر إلى بعض الآراء العلمية، وهنا مكمن الحرج بالنسبة للإسلام الذي لم يعرف طوال تاريخه صراعا بينه وبين العلم. لقد عرفت الفلسفة الإسلامية مواجهات مع بعض فقهاء الدين، لكن العلماء وجدوا كل التكريم. هذا التوافق بين علماء العلم التجريبي وعلماء الدين والشريعة هو الذي أعطى إيحاءً لعبد المجيد الشرفي [٢]بالبحث في جذور العلمانية داخل الإسلام ، خاصة بعد انتشارها في المجتمعات الإسلامية والعربية ، لأنه "لكي تنمو البذرة وتعطي ثمارا يجب أن تجد تربة ملائمة، ولكي يكون زرع الأعضاء ناجحاً، لابد أن تكون لها خصائص مشتركة مع الجسم المستقبل، فإذا لم تكن المجتمعات العربية الإسلامية مستعدة للعلمنة، فكل تأثيرات الغرب مجتمعة لن تنجح في تحويلها"[٣]، حيث حاول أن يبين أن بالإسلام توجد مقومات العلمانية.

الإسلام فصل في المقدّس والمتعالي بإجابة قطعية ، و بقيت الدنيا هي المجال الذي ينشط فيه الإنسان أي العلم والعقلانية، الأطباء كانوا يقومون بتجارب على جثث الموتى ولم يُشكك في إيمانهم، ابن خلدون طبق القوانين الاجتماعية الوضعية. "هذه الأمثلة تبرهن وببساطة أن الإسلام باعتباره دينا وممارسة دينية في الوقت نفسه، يقبل بإثراء بعض الصور للعلمانية"[٤]. كل ما يجب التأكيد عليه أن العلم عند المسلمين في تلك الفترة لم ينف عالم الغيب، ولم يكن يؤمن بالمادة فقط، كما ذهب إليه بعض أنصار العلم المعاصر.

---

(١) عبد المجيد الشرفي: الفكر الإسلامي في الرد على النصارى، ص ٥٢٧.

(2) Abd Al-Majid Charfi : La Secularisation Dans Les Sociétés Arabo-Musulmanes Modernes Islamo-Chritiana, Tome 8, Rome, 1982.
«Cette recherche naguère été entreprise, dans cette perspective à : notre connaissance », p 59
يذكر في مقاله:

(3) *Ibid, p 59.*

(4) *Ibid, p 62.*

ج -إمكانية المقاربة بين الدين والعلم:

من الممكن أن نجد تعايشا بين الإسلام والعلم وفق نظرة جديدة متفتحة تحاول تحصيل ما فات واللحاق بالركب الحضاري، هذا التعايش لا يُفترض بين الإسلام والعلم فقط، فالأديان السماوية الأخرى لها نصيبها من الحقيقة والإيمان، وعموما العالِم الحق يقف من الدين والكتب المنزّلة موقفا علميا يتسم بالتأني في الحكم، فهو ينظر إلى الأمور الجوهرية في هذه الكتب، ولا يرى أن من شأنه البحث في التفاصيل. وأهم ما يعجبه هو ما تضمنته هذه الكتب من فكرة الألوهية الصحيحة التي هي القول بخالق قادر، وذلك ما يؤدي إليه النظر العلمي في هذا العالم(١).

إن الفصام المطلق الذي رامه غلاة الوضعية بين الدين والعلم قد حول العلم المجرد عن التقوى والإيمان والمسؤولية الأخلاقية إلى سلاح هدمي خطير صارت البشرية جمعاء تتجرع أوضاره وأضراره ومفاسده ونتائجه المخيفة لحدود قصوى (٢).

النظر العلمي الشامل والذي غاب للأسف عند بعض العلماء، فأنكروا الخالق والروح والغيب والميتافيزيقا، فقّوضوا بذلك الوجود الإنساني بمعناه الحقيقي الواسع . الوجود الإنساني القائم على الوحدة بين عناصره، وعلى الإيمان بالتوحيد فيما يخص خالقه، وهذا أمر محسوم بالنسبة للإسلام الذي رمى جانبا كل المقولات الثنائية ، فالدين والدولة، والروح والجسد، وعالم الغيب وعالم الشهادة، والإنساني والحيواني، والوحي والعقل، والدين والعلم ، كل هذه الثنائيات لم يعترف بها الإسلام و الفكر الصادر عنه، المسترشد في استشهاداته واستقراءاته بالهدي الإلهي فاستوى الدين والسياسة، والروح والجسد، والغيب والشهادة، والإنساني والحيواني، والوحي والعقل، في نسق تأليفي غاب معه قانون الصراع وزال فعله وتأثيره (٣) .

كذلك إحساس الإنسان المتزايد بتفاهته، في عالم الآلة، جعله يوجه النقد للعلم رغم أن العلم في ذاته لا يحمل إساءة ، لكنه يصبح كذلك عندما يتحول إلى إيديولوجيا تزعم أنها تملك مفاتيح الغيب والشهادة، كما اعتقد بعض العلماء الملحدين.

وأكثر من ذلك علماء كبار يرفضون هذا التوجه العلمي المادي الآلي المنزع بعد أن وقفوا بأنفسهم على قصور اختصاصهم، بل وعلى أخطار العلم. يقول أنيشتاين:

---

(١) محمد أبو ريدة : المرجع نفسه، ص ١٨٠.

(٢) عرفان عبد الحميد فتاح: خصائص المنهج العلمي ومقاربته في القرآن الكريم، بمجلة التجديد، العدد ١، يناير ١٩٩٧، تصدرها الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، ص ٢٥.

(٣) عرفان عبد الحميد فتاح: إسلامية المعرفة ومنهجية التثاقف الحضاري مع الغرب، ص ٢٢.

من ناحية أخرى نجد أن التكنولوجيا خلقت للإنسان مشكلات خطيرة ، ويتوقف بقاء الإنسان نفسه، على إيجاد حل ملائم لهذه المشكلات، ويتعلق الأمر بإبداع نوع من النظم والتقاليد الاجتماعية، لا مناص لهذه الآلات بدونها أن تجلب للبشرية أشد الكوارث(١).

هذا رأي وتحذير عَالِم له وزنه المجمع عليه، ، ثم إن الصيحات المحذرة تأتي من قلب العالم الغربي ، جارودي يصرّح:

" لم نعد نثق بالعلم والتكنولوجيا ثقة ملؤها التقوى، لأن الحياة الإنسانية أصبحت بحاجة إلى تبرير، وأصبحت إمكانية الإنسان، تطرح مشكلات كبرى مثل مشكلة الاختيار ومشكلة الحرية، ومشكلة الأهداف' (٢).

نقد العلم يصدر عن فيلسوف ملحد أيضا، ولكن منصف كراسل، فهو يعترف:

إن العلم لا يمكن أن يقول شيئا فيما يخص موضوع القيم، لا يمكن أن يبرهن على فرضيات مثل: « الأفضل أن تحب من أن تكره » أو « الطيبة أفضل من القسوة » العلم يمكن أن يمدنا بالكثير، فيما يخص موضوع الوسائل لتحقيق رغباتنا، لكن لا يمكن أن يقول إن رغبة ما أفضل من الأخرى، هذا يعني أن العلم، لا يرفض أن يكون وحده أساس الحقيقة، بمعنى أنه يوجد منهج آخر، غير علمي للتوصل إلى الحقيقة، فالوحي والدّين خارج مجال العلم(٣)

أينشتاين يؤكد عدم انفصال الدّين والعلم عن بعضهما البعض بشكل مطلق، لأنه توجد بينهما علاقات متبادلة قوية ، و يشخص هذه العلاقة بقوله : العلم بغير دين أعرج، والدّين بغير علم أعمى(٤) ، ثم إن العلم نفسه أعاد النظر في الكثير من الأمور التي كانت تُعّد يقينيات، فهذه فيزياء أينشتاين تحل محل فيزياء نيوتن، والعالمان بلانك وهايزنبرج قد أبطلا نظريات لابلاس. إن نظرية النسبية وقاعدة الميكانيكا الكمية (كوانتم)، أوصلتا العلماء إلى الاعتراف بأنه لا يمكن الفصل بين المُشَاهِد والموضوع المُشَاهَد... ومعناه أنه ليس في إمكاننا إلا أن نشاهد بعض المظاهر الخارجية من أي شيء، وإننا لا نستطيع أن نشاهد

---

(١) أينشتاين: العلم والمجتمع، مقال ضمن كتاب: آراء فلسفية في أزمة العصر، تأليف: أدريين كوخ ترجمة محمود محمود، المكتبة الأنجلومصرية، ١٩٦٣، ص ١٠٤.

(٢) جارودي: نظرات حول الإنسان، ص ١٢

(3) *Russel : Science et Religion, traduit de l'anglais par Philippe Roger Mantoux, Edit Gallimard, 1971, P 129-130*

(٤) أينشتاين :العلم والمجتمع ، المرجع نفسه، ص ١٠٨.

حقيقته الجوهرية، إن الثورة التي وقعت في الحقل العلمي في هذا القرن، قد أثبتت أهمية الدّين من وجهة نظر العلم نفسه [١].

وطبعا إثبات أهمية الدّين انعكس إيجابا على إعادة النظر في أهمية الكون وأهمية الإنسان، ولفكرة الغائية ككل التي تحطمت مع آلية نيوتن، وتطورية داروين، لكن يمكن القول إنه بعد التدهور الكبير الذي حدث لمكانة الإنسان حتى منتصف القرن العشرين، بدأت الأمور تتغير بتغير معطيات العلم. إن جوهرية الإنسان في الكون عادت إلى الواجهة وبقوة، ذلك لأن العلماء، خاصة منهم الفيزيائيون والبيولوجيون بدأوا يكتشفون خاصيات مدهشة في الطبيعة، جعلتهم بعد تراكم الأدلة، ينصون على نتيجة من أهم ما توصل إليه العلم الحديث، وهي أن الإنسان ليس متلائما مع الكون من جهته فقط، بل الكون ذاته قد خُلق وضُبط بطريقة تجعل وجود الإنسان فيه ممكنا بل حتميا [٢]، بمعنى لا مجال ولو بمقدار ذرة للقول بالصدفة والتطور التلقائي ، العلماء يؤكدون، لو تتغير الثوابت الفيزيائية التي يقوم عليها الكون، ولو بمقدار ضئيل جدا، " لكان ظهور الحياة عموما والإنسان خاصة مستحيلا، هذه الدقة المذهلة الملاحظة في الكون... هي ما نعبّر عنه بفكرة « التناغم الكوني » وهذه النتيجة العظيمة (ضبط خاصيات الكون من أجل ظهور ووجود الإنسان) هي جوهر تلك الفكرة الهامة التي يدور حولها اليوم نقاش علمي وفلسفي كبير، والتي سُميت بـ « المبدأ الأنثروبي» (أي الإنساني)"[٣]، هذا أعاد الاعتبار إلى فرضية الله خالق الكون والإنسان.

وبالنظر إلى هذا التطور الحاصل في موقف العلم نفسه ، رجال الدّين أدركوا أنه من الأجدر الاتجاه إلى روح الدّين وقيمه السمحة له، التي يمكن أن تخرج الإنسان من المصير المتشائم الذي بشرت به فلسفات: نهاية التاريخ، وصراع الحضارات، واللامعقول واللاشعور وكل أدوات نفي الإنسان .

---

(١) وحيد الدّين خان: الدّين في مواجهة العلم، ترجمة ظفر الإسلام خان، المختار الإسلامي للنشر القاهرة، ط٤، ١٩٧٨، ص ٥٥-٥٦.

(٢) نضال قسوم: مكانة الإنسان في الكون، ص ٢٧٤.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٧٤، انظر ما بعدها، صاحب المقال ، يذكر ١٥ ثابتا فيزيائيا والتي إذا اختلت تنعدم الحياة.

خلاصة :

لقد ارتبط مذهب الإلحاد الغربي بالرؤية الحتمية للكون التي كرست لها فيزياء نيوتن وقد شهد القرن العشرون انهيار هذه النظرة الحتمية المادية للكون، وظهور مبدأ اللاحتمية الذي أنهى وهم الحتمية المادية للغيبيات، وبدأ العلم في الغرب يتجه بقوة نحو مصالحة حقيقية مع الدين. وتورد لنا زيجريد هونكه أمثلة على ذلك ، فتنقل عن إرنست راذرفورد العالم الإنجليزي المؤسس للفيزياء النووية والحاصل على جائزة نوبل ١٩٨١م: "ينبغي على العالم الموضوعي أن يتوق وينجذب إلى أسرار هذا الكون ولا يشك البتة في الإله، ذلك أن هناك رأيا شائعا مضللا يقول بأن العالم الذي يعرف الكثير عن الكون ينكر وجود الله، ولكني أرى خلاف ذلك لأن علمنا يقربنا إلى الله"(١).

ويقول عالم الفيزياء الأمريكي أرثور هـ.كومبتون الحائز على جائزة نوبل ١٩٢٧م:" إن العلم أصبح حليفا وناصرا للدين، لأنه من المستحيل أن يدخل معه في صراع ومن خلال الفهم الجيد للطبيعة نتعرف على الله خالق هذا الكون، ومن هذا المنظور ندرك أيضا الدور الذي نلعبه ونؤديه في دراما هذا الكون"(٢).

فإذا كان هذا الصراع المرير بين العلم والدين في أوروبا قد أدى إلى شيوع هذه المذاهب الإلحادية. ومن جهة أخرى فإن الصراع بين الدّين والعلم، لم يبق صراعا نظريا لقد حسمت الآلة والتجربة الإشكال لصالح العلم ، مما ساهم في تعميق التغيير الحاصل في النظرة إلى العالم، وما تبعها من تغير في النظرة إلى الله وصفاته، وغرضية العالم وأخلاقيته ومكانة الإنسان، ليمتد تأثير ذلك في إنتاج الأنساق الفلسفية والفكرية والأيديولوجية في أوروبا، ليسطع الإعلان النتشوي عن موت الإله، متأثرا بنظرية داروين، وتظهر الإيديولوجيات القائمة على تنصيب آلهة جديدة كالقوة والمال واللذة ، ليجد الإنسان الغربي نفسه، يخرج من متاهة ليدخل إلى أخرى، فاقدا لإنسانيته وكرامته بين مصطلحات كالآلية، والصدفة، والحتمية، والتطور.

لكن بعد التدهور الكبير الذي حدث لمكانة الإنسان حتى منتصف القرن العشرين، بدأت الأمور تتغير بتغير معطيات العلم الذي تراجع عن الكثير من المسلمات التي شُيد عليها في العصر الحديث، الذّي تشكل وفق منطلقات فلسفية مادية ميكانيكية، مقصيا

---

(١) زيجريد هونكه، العقيدة والعلم وحدة الدين الأوروبي وعلم الطبيعة، ت: محمد أبو حطب خالد، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٧م. ص ٣٠٦ .

(٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

التعليل الماورائي في تفسيره للظواهر. هذا العلم وبفضل التطور الحاصل فيه، كشف عن نقائص وأخطاء وقصور، بل وأخطار سواء في تفسيره للظواهر، أو رؤيته للكون المفتقدة للغائية والإيمان بالله ، من هنا كان النقد الذي سلّط على العلم، نابعا من علماء وقفوا بأنفسهم على غلّو النظرة العلمية وقصورها، ممّا مكّن من العودة إلى الحديث عن العلم ودوره وعلاقاته ومبادئه من منظور ابستمولوجي جديد يراعي أكثر متطلبات الإنسان وخصوصيته، ومكن من العودة أيضا إلى الحديث عن بعث جديد للمسيحية رغم الصعوبات والتهميش الذين تعرفهما.

كذلك نؤكد ليست المجتمعات الغربية المسيحية وحدها التي تعرف وضعا متأزما دينيا، مجتمعاتنا كذلك تعيش هذا الوضع ، لكن بشكل مختلف، أزمة المجتمعات الإسلامية لا تكمن في أصالة مصادرها الدينية، وإن كانت توجد بعض المحاولات التي تفسر أزمتنا بإسقاط التراث والتاريخ الغربيين على التاريخ والواقع الإسلاميين وبالتالي تقدم الحلول نفسها. بعيدا عن هذا الطرح فإن من أهم الإشكالات التي نعاني منها تكمن في تداعيات الحضارة الغربية بإيجابياتها وسلبياتها على واقعنا وأنساقنا الفكرية. الواقع يطرح بشدة إشكالات جديدة تتصل بالتفاعل مع متغيرات الحضارة المسيطرة ، تفاعل يتم بالقبول والرفض والتحفظ لهذه المتغيرات، الأمر الذي يعجل بدرس اللجتهاد والتجديد إلى جانب الإحياء ، و بالتالي ضرورة فقه معاصر يقدم أجوبة و حلولا بالنظر والمراعاة لكل هذه المتغيرات التي يعيشها المسلم. كذلك دراسة الآخر تساعد كثيرا في فهم الذات، وتكشف عن نقاط قوتها وضعفها بموضوعية تجنب الوقوع في منزلق الإعتزاز الزائف بأمجاد الماضي، أو الانبهار والسقوط في أحضان تراث وحضارة الغير.